امرأة أخرى

لمحمد الحديدى

لمحمد الحديدى خمس روايات سابقة بالتتابع « الجدران » (١٩٧٢) و « شبان هذه الأيام » (١٩٧٣) و « شخص آخر فى المرآة » (١٩٧٦) و « قبل أن يهبط الظلام » و « امرأة أخرى » (١٩٧٨) .

والحديدى يحرص فى كلّ رواية من رواياته على مناقشة قضية من قضايا الإنسان المعاصر – كما سبق أن ذكرت – مثل حريته التى يفتقدها فى رواية « الجدران » ، والفكر الذى يفتقده فى « شبّان هذه الأيام » ، وهويته التى يفتقدها فى « شخص آخر فى المرآة » . ثم – على نحو ما سنرى – السعادة التى يفتقدها فى « امرأة أخرى » . ومعنى هذا أن هناك صلة تربط بين روايات محمد الحديدى هى تركيزها على مناقشة قضايا الإنسان المعاصر .

« امرأة أخرى » تُرْوى بضمير المتكلم كمعظم روايات الحديدى . بطلها « محمد سعيد الدسوقى » يحاول أن يحقق ذاته هذه المرة عن طريق الحصول على سعادته ، كما حاول من قبل بطل الجدران – الذى لم نعرف له اسمًا – أن يحقق ذاته عن طريق الحصول على حريته ، وكما حاول بطل « شخص آخر فى المرآة » ، المزدوج الشخصية – الدكتور رمزى حسين بيومى أستاذ الجامعة الذى نقلوا مخّه فى جسد نجم الكرة لطفى مدكور على إثر حادث وقع لكلٍّ منهما – حاول أن يحقق وجوده عن طريق إثبات هويته . وكان الفشل نصيب الأبطال الثلاثة حيث لم يستطع أيّهم أن يحصل على ما توهّم أنه يحقق ذاته . فبطل الجدران الذى كان يحاول الحصول على حريته داخل جدران أربعة يكتشف فى النهاية تناقض مايجهد من أجل الحصول عليه ، فهو داخل الجدران أقل حرية مما كان خارجها ، فتلك هى المفارقة : إن محاولة الحصول على مزيد من الحرية ينتهى بفقدان مزيد منها . وبطل شخص آخر فى المرآة يكتشف أن الموت أهون عليه من مثل هذه الحياة المزدوجة التى لا يستطيع أن يتصالح فيها باطنه (أستاذ الجامعة) مع

ظاهره (بطل الكرة) . ولهذا فإنه لا يقاوم فى النهاية ذلك القاتل الذى حاول اغتياله من قبل فلم يهشم إلاّ جسده ، غير أنه هذه المرة رحب به طالبًا منه الإسراع لكى يخلّصه من ازدواج شخصه الذى طالما عذّبه .

وبطل روايتنا « امرأة أخرى » لم يكن مصيره يختلف كثيرًا عن مصير سلفيه . إنه يحكى قصته وهو ملقى على الفراش كالبغل النافق – على حدّ تعبيره – (محمد الحديدى ، امرأة أخرى ، كتاب اليوم ، مؤسسة أخبار اليوم ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٠٩) . وهو يعلن فى ختام اعترافاته قائلاً : فى حالات كثيرة أشعر بالأسف لأن هناك أملاً فيما أريده ، نعم ، بالضبط ، أحيانًا يسرنى أن أجد أنه ليس هناك أمل ، فأرتاح ، أرتاح من المحاولة الشاقة وفى ذات الوقت لا أتهم نفسى بالتقصير فى حق نفسى ، كأن تتقدم لوظيفة ثم يتضح أنك غير مستوف للشروط ، فيسرك ذلك لأنه سيوفر عليك عناء المنافسة والسعى ومعاناة الفشل فى النهاية . صحيح أنك كنت تستطيع من البداية أن تتجاهل الإعلان إلاّ أن ضميرك سيظلّ يؤنبك لأنك لم تحاول ، ولكن عندما تكتشف أن شروط السن وسنة التخرج والتقدير ... إلخ لا تنطبق عليك ، فإنك تستطيع أن تقف أمام المرآة فى وقاحة ، وتصيح بالمغفل الذى ينظر إليك بكل ما فى الدنيا من غيظ وحقد ، ماذا تريدنى أن أفعل ؟ لست أنا الذى وضعت هذه الشروط (المرجع السابق ، ص ١٥٣) يقصد شروط الوجود فى هذا المجتمع عامة وشروط الوجود فى الحياة بوجه أعم .

وتنتهى روايتنا بقرار البطل أن يهرب ، بعد أن انطلق إلى بيت جنان (المرأة الأخرى فى حياته) حيث ودّعها صامتًا « ولم أحاول بعد ذلك أن أقترب منها . وعندما جاءوا بى إلى هنا بعد ذلك بسنة واحدة ، أحسست أنهم أنقذونى من العالم الذى يحيط بهذا المستشفى الكئيب ».

وليس لفشل أبطال روايات الحديدى إلاّ دلالة واحدة هو وجود خلل فى درجة التماسك الاجتماعى يؤدّى إلى تمزق الطرفين : الفرد والمجتمع ، والاحتجاج على تعذر التصالح بينهما . فما يعتقد الفرد أنه حريته يعتقد الآخرون أنه اعتداء على حريتهم ، والعكس ، فإن مايراه الآخرون حريتهم يراه الفرد اعتداء على حريته (الجدران) . والأمر نفسه عندما يصرّ الآخرون على التعامل مع ظاهر الفرد بينما يصرّ الفرد أن يتعاملوا مع حقيقته وألاّ يؤخذوا بالظاهر (شخص آخر فى المرآة) . كذلك يتخبط بطل روايتنا (امرأة رجل آخر) عندما يقوم بسلسلة محاولاته – مرةً بعد أخرى – وبتنويعات مختلفة للحصول على سعادته ، فيكتشف فى النهاية أنها

تتعارض مع سعادة الآخرين ، وكأنما لا سبيل إلى الوصول إلى تلك المحاولة التى تجعل من سعادة الفرد سعادة الآخرين – أو المجتمع ، ومن سعادة الآخرين أو المجتمع سعادةً للفرد أو لأفراده . ولا شك أنها علامة من علامات التماسك والنضج الاجتماعى أن تتقارب – ولا أقول تتوحّد – مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة بحيث يصبح ازدهار الواحد معناه ازدهار الآخر وليس على حسابه .

فى مراهقته المبكرة نجد أن بطلنا أحبّ الصبية « تيسير » التى أقبلت مع أسرتها ذات صيف لقضاء أجازتها فى منزل مجاور لمنزل بطلنا . ورغم أن تيسير رحلت مع أسرتها ثم ماتت فيما بعد ، إلاّ أنها أصبحت جزءًا من شخصيته بل من وجوده . فقد ظلّ كلما أغمض عينيه لا يرى سوى صورة واحدة هى صورة تيسير وهى ترمقه بنظراتها الثابتة الطويلة من وراء الستار الشفاف الذى يغطى نافذتها (المرجع السابق ، ص ١٩) .

ولهذا عندما التحق بالمدرسة الثانوية فى نهاية ذلك الصيف وسمعهم ينادون على زميل جديد اسمه تيسير ، قرر التعرف به ومصادقته – وهكذا كان حبه الأوّل طريقه إلى صداقته الأولى : إن منظر تيسير وهو جالس فوق أرض الحديقة ، يضحك ثم يضحك ، تمامًا كمنظر تيسير وهى ترمقنى من خلال الستار الشفاف الذى يغطى النافذة . لا يمكننى أن أغمض عينى دون أن أراه . كانت النافذة تجربتى مع الحب . والحديقة تجربتى مع الصداقة (ص ٣٠) .

ولقد اكتشف أن الصبى تيسير من فئة اجتماعية أعلى بكثير من فئته التى ينتمى إليها . ولكن بقدر تعارض هاتين الفئتين بقدر ما كان هناك نوع من التكامل بينهما ، على الأقل من جانب محمد سعيد الدسوق الذى يشعر بهذين الإحساسين المتعارضين : غربته عن ذلك المستوى الاجتماعى الذى ينتمى إليه تيسير وحاجته إليه فى الوقت نفسه (ص ٢٥) . والفقرة التالية توضح ذلك ، « والأسرة هى الأب والأم وتيسير ، وقد دعونى إلى الغداء معهم ، وكنت طول الوقت مضطربًا لا أدرى ما أفعل ، وكأنى نزلت على أرض المريخ وتعرفت إلى أسرة من ساكنيه . أنقذنى تيسير بأن دعانى إلى ركوب دراجته من طراز رالى . نزلنا إلى الطريق وأخذ أحدنا يركب والثانى يجرى خلفه . ثم جلسنا على الحشائش نلتقط أنفاسنا » (ص٢٥) . وفيما بعد سيكون والد تيسير هو الواسطة التى بها يلتحق فؤاد أخو بطلنا بالكلية الحربية . كما أن تيسير هو الذى سيقود بطلنا إلى تطورات أبعد من مجرد هذا الحب البرىء الرومانسى الذى عرض له فى مراهقته المبكرة . وهى خطوات ما كان يمكن لمحمد سعيد الدسوق أن يجرؤ على خطوها

بمفرده – حتى حين يكتشف بطلنا أن ما معه من نقود لا يكفى لدفع فاتورة حساب جروبى وهو جالس مع سميرة – التى تعرّف عليها عن طريق تيسير – فإنه يتصل تليفونيًّا به لكى يضيف الفاتورة على حسابه .

وهكذا توثقت العلاقة بين سعيد الدسوق وتيسير الصبى . وكان تيسير هو الذى فاتح بطلنا فى موضوع الحب ، فقد كان تيسير بدوره يمر بتجربة حب تشبه تلك التى مر بها محمد الدسوق .

وبانتهاء تجربة الحب الأوّل ، جاءت تجربة الجنس . ومع تجربة الجنس ظهرت فى حياة بطلنا تجربته مع الشعر ، كأنما ليتحقق لون من التوازن بين الحس والعاطفة فى حياته . وسيظل هذا الطريق المزدوج المتعارض المتكامل هو محاولة البطل أن يقطعه فى سبيل أن يحقق – عبثًا – سعادته أو وجوده . ستجد هذا فى ازدواجية الحلم والواقع ، والماضى والحاضر ، « تيسير » الطفولة و « جنان » الرجولة . وهكذا التحق محمد سعيد الدسوق بالقسم الأدبى فى السنة التوجيهية كما كانت تُلَقَّب فى ذلك الوقت ، والتحق بعد ذلك بكلية الآداب . بينما التحق صديقه تيسير بالقسم العلمى ، وبعد ذلك بكلية الطب . وهكذا تظلّ العلاقة بين الصديقين محمد سعيد الدسوق وتيسير سعيد عزت لا على مسافة طبقية فقط ولكن على مسافة مزاجية أيضًا ، ومع ذلك فهى مسافة تحدد شخصية كلٍّ منهما دون أن تفصل بينهما .

ولم تكن تجربة الجنس فى حياة محمد سعيد الدسوق بأنجح كثيرًا من تجربة حبه الصبيانى . كانت تجربته الأولى مع الخادمة سعدية مجرد قبلة اقترنت فيها السعادة بالقرف . وهى تجربة ما لبثت أن افتضحت مما ترتب عليها إبعاد سعدية إلى البلد (القرية) والشعور بالحرمان الذى ترتب عليه أن يكون عنوان القصائد « أشجان » « تسهيد » « لوعة » وقوافيها تنتهى بكلمات مثل « الهموم » « لايدوم » ، « لانديم » ، مما يوضح كيف يتكامل الشعر والجنس وإن بدا كل منهما معارضًا للآخر .

ولئن كان الشعر هنا نتيجة الحرمان من الجنس ، فقد كان حلم يقظة البطل أن يكون الشعر وسيلته إلى إشباع الجنس : لابد أن أصبح شاعرًا عظيمًا . أن أتخذ مما أنا فيه من شقاء مادةً لقصائد تفتت قلوب الناس وتجعل دواوينى كالماء والهواء وتوقع كل النساء فى غرامى . لابد أن أصبح « على محمود طه » وأركب الجندول ويتغنى بشعرى عبد الوهاب وأم كلثوم ، وتصحو

الحسناوات من النوم لتمدّ كل منهن يدها إلى التليفون الأبيض المجاور للسرير ، وتطلبنى لتسألنى عن ليالى كليوباترا . (ص ٤٣ – ٤٤) .

وتلت ذلك محاولة مع وقف التنفيذ من جانب شخص فى الستين أو تجاوزها تركت فى نفسه نفس الشعور المتناقض الذى تركته محاولته مع سعدية أو بتعبيره عن هذه التجربة : مزيجًا من الذعر والرغبة فى التجاوب (ص٣٩) .

أما تجربته الثالثة والرابعة فكانت محاولات مع عاهرات وبصحبة صديقه تيسير . ولقد أدرك بطلنا أن الجنس هنا تجارة كأى تجارة أخرى ، حتى أنه كان يظن من مظهر تلك البيوت فى أوّل الأمر – ولعدم خبرته – أنها توكيلات تجارية وأن السيدات الجالسات أمامها هن زوجات أصحاب هذه التوكيلات أو لعلهن موظفات بها . وعندما دخل وجد أن كل شىء يبدو عاديًا تمامًا كما لو كانت الفتاة – وكانت صغيرة السن نوعًا ما – حكيمة أشعة مثلاً . ولهذا ظلّ فيما بعد كلما دخل على مدير أو رئيس أو شخص كبير فى مكتبه تذكر تلك المرأة . لماذا ؟ « لأن تيسير خرج وأنا دخلت وهى باقية فى « مكان عملها » تمامًا كما يجلس أمام مكتبه ، ويخرج واحد من عنده ويدخل من يليه من الجالسين فى قاعة الانتظار . (ص ٥٤) .

وكما انتهت محاولاته مع الجنس بهذا الإحباط انتهت أيضًا محاولاته مع الشعر ، ومع إعداده رسالة الدكتوراه . وكان يبرر فشله بقوله : لم يوجد بعد الأستاذ الذى يتمتع بالذكاء الكافى لاكتشاف موهبتى ، تمامًا كرؤساء تحرير الصحف الأغبياء الذين لا ينشرون القصائد التى أرسلها إليهم . (ص٩٠) .

بعد تجربته مع الحب والجنس كانت تجربته التى كانوا يطلقون عليها فى ذلك الوقت « المشى مع البنات » فقد تعرّف عن طريق تيسير على فتاة سمراء تُدعى سميرة ، اغتصب منها قبلةً فى أحد شوارع المعادى المظلمة وتصنعت الغضب ثم اتضح أنها متزوجة ثلاث مرات فى خمس سنوات .

وأخيرًا تنتهى محاولاته مع الجنس بزواجه – وقد اتضح أن الموقف لم يكن يختلف عن موقفه مع العاهرات ، فقد بدأ الحديث عن المهر والشبكة (ص ١٠٠) . فهنا وهناك تجارة . وقد انتهت تجربة زواجه كما انتهت كلّ تجاربه السابقة مع الحب والجنس . إذ اكتشف فى النهاية أنه يعدو وراء سراب . كانت تجربة كلها شك وغيرة من جانبه حتى مما يُحتمل أن يكون قد حدث فى ماضى زوجته قبل زواجها منه ، ووصل الأمر إلى حد ضربها .

ولأن الزواج علاقة علنية وليست مثل العلاقات الأخرى ، فقد تعددت فى الرواية على مستويات مختلفة ، وكانت النتيجة واحدة : أخته إنصاف وزوجها وصلت علاقتهما إلى حدّ الطلاق ولو أنه ردها مرةً أخرى . وتيسير فقدته زوجته جنان بسبب إدمانه شرب الخمر حتى الموت .

وأخيرًا يتوهم أن سعادته لن تتحق إلاّ مع حبه المفقود : جنان التى اكتشف أنها لم تكن إلاّ تيسير طفولته . وعندما انفرد بها وحاول أن يقبلها وقف الآخرون دون حصوله على ما توهم أنها لحظة سعادته القصوى ، اعترضوا طريقه بالعصى والسباب ، حتى أفلت منهم بأعجوبة ، وهو يتوقع أن يستوقفه أى عابر ثم يمسك بخناقه ويجذبه إلى الطريق ليلتف الناس حوله ويوسعوه ضربًا بقباقيبهم أو يرجموه بالحجارة .

ما أوسع الهوّة بين الفرد ومجتمعه ، بين الأنا والهم (الآخرين)

وأخيرًا فإن محمد الحديدى ما يزال حريصًا على أن يجذب قارئه بعنصر تشويق تتسم به معظم رواياته هو إضفاء لمسة غموض على بعض شخصياته أو ما يتكرر من أحداث على نحو ما نجد بالنسبة لبطل الجدران والصديق العجوز والشبّان الأربعة المجهولين الذين يطوفون بسيارتهم من حين لآخر . ويرجع غموض هذه الشخصيات إلى تأرجحها بين الواقع والرمز .

نفس الطريقة فى رواية « شخص آخر فى المرآة » ، فهناك التليفون نسمع رنينه من حين لآخر حيثما وُجد البطل وعندما نرفع السماعة لا نسمع أحدًا ، كذلك الشبح الذى كان يبدو ثم يختفى قبل أن يمكّننا المؤلف من معرفة حقيقته ، وما إذا كان حتى إنسانًا أو حيوانًا . ثم يتضح لنا أن الأوّل لم يكن إلاّ الجراح الذى أجرى العملية ليزرع مخ الأستاذ الجامعى فى جسد الشاب الرياضى ليتكون منهما بطل قصتنا ، وأنه كان يتلهف على معرفة نتيجة عمليته ، أما لماذا لم يُرد أن يفصح عن شخصيته فيبدو أن حرص المؤلف على وجود عنصر غامض فى روايته كان سببًا أقوى من المبررات التى نحاول أن نستشفها لعدم إفصاح الطبيب الجرّاح عن نفسه . أما الشبح فلم يكن إلاّ زوج السيدة التى تتعلق بالبطل وكانت على يديه – لهذا السبب – نهاية البطل . وحرص الزوج القاتل هنا على إخفاء شخصه أكثر تبريرًا من حرص الطبيب الجراح على هذا الإخفاء . وأكثر من هذا وذاك معًا حرص المؤلف على إيجاد عنصر تشويق وجذب للقارئ .

أما فى روايتنا فإن عنصرى الغموض والتشويق يأتيان من هذا الخلط المتصل بين تيسير الصبية التى أحبها البطل فى صباه وجنان زوجة صديقه تيسير ، والتى أحبها لتشابه شخصيتها مع

شخصية أوّل حب له . فتراه يقول عن جنان : كانت هى واقفة عند الباب ، هى تيسير الصغيرة وهى ترمقنى بنظرتها الطويلة من وراء الستار الذى يغطى النافذة . (ص ١٢٨) . وعندما كان ذات مرة برفقة جنان نسمعه يقول : تذكرت الحلم فتركتها تبتعد وأردت أن أناديها . ولكن ، هل أصيح بها « تيسير » كما فى الحلم ؟ مجرد الفكرة جعلتنى أقشعر (ص١٥٢) .

فهذه الازدواجية بين الحلم والواقع ، بين تيسير حبيبة الطفولة وجنان حبيبة الرجولة ، هى التى أضفت على العمل الفنى غموضه ووهبته عنصر التشويق .